الفصل الحادي والعشرون

العلم في الشرق

أما وقد تم لنا الكلام في التربية العامة، والعائلة، والوطن. فنأخذن بأطراف الحديث علي العلم عندنا، وحالة المدارس في بلادنا، مختصين مصر بهذا الموضوع، فهي البلد التي عاصرنا فيها غصن الشباب، واجتنينا ثمار العلوم والآداب، فلا بدع إذا جعلنا هذا الموضوع وقفا عليها، ولا غرابة في أن نرجع بما نقصده من الخدمة إليها.

ومن وجه آخر فإن بين مصر وسواها من البلاد العثمانية: كسوريا مثلا، فرقا عظيما في ما يتعلق بالأحوال العلمية، وذلك أن الكلام في هذا الموضوع يجب أن يوجه في العثمانية إلى الحكومة، وفي مصر إلى الأمة نفسها.

ولسنا نظن أن أحدا يخالفنا في القول بأن الشعب في بلاد العثمانية عامة –وسوريا منها خاصة– أرقي من الشعب بدرجات عديدة. ولذلك نحن نرسل الكلام في ضرورة العلم علي وجهة العام، ثم ننظر في هذا الأمر إلى مصر نظرا خاصا، لا نقصد فيه إلا إلى الخدمة العامة التي هي غايتنا من وضع هذا الكتاب، فنقول: جاء في الحديث الشريف: "مجلس علم خير من سبعين سنة عبادة". وقد قيل أيضا: "العلم خير من صلاة". وقال الأمام علي: "العلم زين وتشريف لصاحبه".

أجل، والعلم للمرء كالمطر للأرض، فمن لا علم عنده، ولا معرفة له كالأرض القاحلة الجدية، لا يرجى له نفع، ولا يؤمل منه خير.

والعلم وسيلة الإسعاد، وواسطة نجاح كل بلاد، فلذلك ترى الحكومات باذلة جهدها في سبيل انتشاره، تعضد كل مشروع علمي، وتساعد المدارس، وتحث الناس علي طلب المعارف وتحصيل الفنون. وترى الرجال العظام مقبلين علي إكرام العلماء، ورفع منازلهم، وتعزيز مقامهم، ومعرفة قدرهم، والإقرار بحاجة البلاد إلى العالم الحكيم أكثر منها إلى صاحب السيف ورب الدينار. وشاهد القول نصب العين، وتحت الناظر، فانظر معنا أيها القارئ إلى البلاد التي كانت في حالة الخشونة والتعاسة أيام كان الجهل فيها ضاربا سرادقه، كيف أصبحت بعد ما نشر العلم فيها لواءه، وإلى أية درجة وصلت من السعادة والرفاهية؟. ثم عد بي نلق علي ديار كانت للعلم مهدًا، فنعمت به زمنا، ثم أهملته وتخلت عنه، فخسرت سعادتها، ولحق بها الخراب والدمار، فكأنما كان العلم لها حياة، ولجسمها روحا، فلما جف ماء الحياة وفارقتها الروح ماتت وتلاشت.

وأننا إذا نظرنا بعين البصيرة إلى حالة الوطن العلمية نراها منحطة إلى درجة لا يؤمل معها نجاح، ولا يتوخى فلاح. فالعلم يقتصر عندنا منه في غالب الأحيان، وعند أكثر الناس من قومنا علي معرفة بعض قواعد اللغة العربية، ومبادئ لغة أخرى أجنبية، غير ناظرين إلى العلوم العالية، ولا مهتمين بتحصيل الفنون وإدراك الصنائع التي عليها يعول، وإليها يرجع في إسعاد بلاد، وإنهاض أوطان.

ونحن العرب قد كانت لنا دولة علم باهرة قد سكنا قصورها، وشمس علوم زاهرة فكسفنا نورها، وارتضينا بعد العلم بالجهل، وخالفنا طريق أجدادنا المتقدمين الذين بنوا للمعارف في بلادهم صرحا مشيدا، وأقاموا للعلوم منارا رفيعا. فازدهرت في أيامهم البلاد، وسعدت العباد، وراجت الأحوال، وتحققت

الآمال، وابقوا لنا من بعدهم دستورا لاتباع عملهم أثرا للعلم والهمة لا يضمحل، وعرشا من المجد والعز لا ينثل. أجل ذهبوا ولسان حالهم ينادي

إن آثارنا تـــــــدل علينـــــــا فـــــانظروا بعــــدنا إلى الآثار

فنظرنا إلى الآثار، ولكن بعين الفرجة لا بقصد الاتباع. فأين الكتب التي ألفوها، والمكاتب التي شيهدوها، وأين التعاليم التي رسموها، والطرائق التي اختطوها، والصنائع التي ابتدعوها، والفنون التي اخترعوها، وأين، وأين، وأين...؟

غرّقت بعضها الماء، وأكلت بعضها النار، ولحق بنا من بعدها الخسران، والذل، والعار...

علي أننا لسنا في موقف الانتقاد الإهمال، ولا في مقام التقريع علي التقصير، بل نحن نقصد إلى بيان فوائد العلم في الوطن العزيز؛ ليعلم الناس أن تقدم بلادنا ونجاحها متوقفان علي تقدم المعارف وفلاحها. فكيف يرجى إصلاح الأحوال إذا كنا نجهل وسائله؟. وكيف يؤمل شفاء الداء إذا كنا لا نعرف الدواء؟. ولقد وضح وثبت بالاختبار أن بلوغ بلاد ذروة المجد، وقمة النجاح لا يتم إلا بغزارة المال، وعظم الثروة، وأن المال هو أساس الأعمال. فبأية واسطة نجلبه؟ وكيف يستدر في البلاد وابلة؟. سؤال تقف عنده الأفكار، وتحط لديه جاريات التبصر والافتكار، بل أمر كرس له الباحثون معظم أيام الحياة، فما وجدوا له إلا جوابا واحدا لا ثاني له، فقال أجمعهم: بالعلم.

أجل، فما أخطأوا. أفلا تري رأي العين كيف تنجح الصنائع، وتزهو الفنون، وتنمو الزراعة، وتروج البضاعة، ويكثر الاختراع، وتزهر الأعمال. فتقوي همم الرجال، وتجري بين أياديهم ينابيع الثروة والمال؟.

قف معنا وقفة المتفرج تر في بلاد العلم ما يدهش البصر، ويبهر النظر، ويسر القلب والخاطر، ويشرح الصدر والناظر، من بدائع الأعمال، وغرائب الأشغال. أفتدري كيف يستطيع المرء التغلب علي تلك الأهوال؟. يستطيع ذلك بما ندعوك إليه، مثابرين علي حثك أيها الوطني عليه. يستطيع ذلك بالعلم، وما نكثر من المقال دون إبداء البرهان، وبسط الإيضاح والتبيان، فإن خير الكلام ما وضح وبان... لسنا نجهل أننا بافتقار كلي إلى ما يعضد أعمالنا، وينجح أشغالنا، ويصلح زراعتنا، وينهض ساقط صناعتنا. بل نعلم علم اليقين أن الحالة التي صرنا إليها لا تسر صديقا، ولا ترد كيد مبغض. فلقد ذهبت من أيدينا الصنائع، والعلوم. وقلت بذهابها ثروتنا، بل ذهبت علي أثرها أموالنا، وأصبحنا كأننا لم نكن أصحاب الصنائع، ومخترعي الأعمال. فوجب علينا بعد ذلك أن نسعى جهدنا، ونصل الليل بالنهار سعيا إلى تحصيل ما كنا أربابه قبل فوات الوقت، والوقت ثمين، وقبل ضياع الفرصة، والفرصة لا تضاع، فإنها متى أفلتت لا تعود. ولا ملجأ لنا غير العلم، فمتى انتشر بيننا انتشارا عاما أتقن الزارع فن الزراعة، وتفنن الصناع في أعمالهم، وظهر المكتشفون، والمخترعون، وعادت الصنائع إلى مجراها القديم، واشتغل الكتاب والمؤلفون بما هو مهمل لقلة الطلاب، وعدم وجود الراغبين.

ولقد أعجبتني من أحد الوطنيين بها يوما وهو ممسك بقطعة نسيج من الحرير، فتفحصها مليا، وقلبها في كفه، ثم قال: "أنظر إلى هذا النسيج، فهو يخرج من بلادنا بأرخص الأثمان، ثم يعود إلينا كما تراه، فنبتاعه بما عز وغلا. فما ترى ينقصنا لاصطناعه في وطننا، وبيعه بربح وكسب؟"

قلت: "ينقصنا أمران: العلم، والمال". قال:" أصبت ينقصنا أمران: ولكنهما الإرادة، والوطنية. فلو وُجدت الإرادة وكنا ممن لهم علي الوطن غيرة،

وفيهم حمية لسعينا وراء العلم مجتهدين، فأدركنا منه ما يكفل لنا مباراة غيرنا من الشعوب التي تباهينا بتقدمها، وحضارتها، وأصبحنا بجدنا وهمتنا، وبما نحن مفطورون عليه من الذكاء والنباهة نفاخر سوانا من الأمم؛ إذ ندرك قمة المدينة، وأوج الفلاح، ونعيش كسوانا في ساحة السعد، والرفاهية تحت سماء الحرية، والعدل، والمساواة، والإخاء "وهو وايم الله" كلام جدير بأن يكتب بماء الذهب، وينادى به علي رؤوس الأشهاد ليكون عبرة للمتقاعدين من قومنا. المتقاعدين عن السعي وراء ما يكسبهم راحة، ويوليهم أجرا، ويبقي لهم ذكا، تفنى الأدهار ولا تزول آثاره.

وما أخص في كلامنا عن العلم جنسنا القوي، بل لابد من تعليم الجنس اللطيف أيضا، وترويض أخلاقه بآداب العصر؛ لتكون المرأة مساعدة للرجل في أعماله، وشريكته في أشغاله، ومنيعة له علي تحمل الأتعاب والمصاعب، وذلك بقيامها قياما حسنا بتربية أولادها، وتدبير شأن بيتها كما سيجيء.

والحمد لله أن رجال الشرق –ولاسيما في مصر وسوريا– قد أدركوا فساد الخطة التي كانت متبعة في بلادنا الشرقية: من إهمال العلم، والتقصير في مجاراة الغربيين في مضماره، فتنبهوا إلى ضرورة استبدال القديم بجديد تبدد أنواره ظلمات الجهل، فأقبلوا علي بيوت العلم إقبالا يحمد، ولكن ليس من كل وجوهه؛ لبقية فساد في نوع التعليم كما سنبينه في موضعه من هذا الكتاب. علي أنه مهما يكن من الأمر نحمد الله علي هذه اليقظة؛ لأنها فأل حسن مبارك علي حد قول الشاعر:

وإذا رأيت من الهلال نموه أيقنت أنه سيصبر بدرا كاملا

هذا ما قاله الشعراء، وقد قالوا أيضا: "وأول الغيث قطر ثم ينهمر"

ثم قالوا: "كل من سار علي الدرب وصل" إلى غير ذلك من الأقوال والمعاني السامية المثبتة أن من الشعر لحكمة.

وقد أخطر هذه الأقوال ببالنا ما شهدناه في هذه البلاد من النهضة الباهرة، ونريد بها نهضة الشعب من لقاء نفسه إلى ارتياد موارد العلم الصحيح، والتربية الحقة مما نذكر تاريخه للدلالة علي أن الهلال متى بدا لا يبطيء أن يصير بدرا، ولا يلبث أن يبلغ التمام.

وذلك أن حضرات القراء يذكرون كيف كان يساق ابن المصري من العامة، بل من الخاصة إلى المدارس عن غير رغبة منه، وبالرغم عن أبيه، وأمه كأنه إنما يساق إلى السجن، وموقف العذاب. ثم انتقل الشعب من هذه الحالة إلى حالة أخري، فصار أقل تعصبا في الرضا بإرسال أبنائه إلى المدارس. ثم أصبح يرغب في ذلك، ويسعى إليه. ولم تمض علي ذلك مدة حتى صار ينفق من أجل ذلك الدرهم والدينار، ويطرق من تلقاء نفسه أبواب المدارس مسترحما قبول أولاده بين صفوف المتعلمين، وكثيرون من الأهالي كانوا –ولا يزالون– يتحملون النفقات الباهظة لإرسال أبنائهم إلى أوروبا، حيث يتمون العلوم التي بدأوا بها في هذا القطر، ويأخذون بأطراف العلوم السامية التي لا وصول إليها في مدارسنا.

وهي خطوة خطاها الشعب المصري في سبيل الحضارة والتقدم المصري، في مدة لم يكن أقصر منها في تاريخ الشعوب. ومع ذلك فإننا نراه في هذه الأيام ناهضًا ليخطو في هذا السبيل المحمود خطوة هي أعظم من الخطوة الأولي. وذلك أنه لما رأي الاحتلال الأجنبي قد أخذ يعيث في مدارسنا فسادا بحجة الإصلاح، ويعمل علي طمس آثار لغتنا العربية، وقتل عواطفنا الوطنية بإفساد طريقة التعليم. بحيث يكبر أولادنا بين أساتذة من الأجانب، ويشبون علي غير ما يجب أن يشبوا عليه؛ ليكونوا في الحقيقة رجال الوطن القادرين علي خدمته،

والأخذ بناصرة مما أشرنا إليه ونبهنا عليه المرة بعد المرة. قام يسعى إلى الاستغناء عن المدارس التي أوجدتها له الحكومة، وقَلب الاحتلال نظامها، فانعكست الغاية المقصودة منها.

وهو سعى لا نري أجمل ولا اسمي منه، بل هي نقطة بيضاء في تاريخ الشعب المصري في ختام القرن الذي يسمونه عصر العلم والمدنية.

أجل، وأي سعى أجمل، بل أي عمل اسمي من أن تسعى أمة إلى تعليم نفسها بنفسها، وتعمل علي أن تتولى تربية أبنائها بيدها. ورحم الله القائل:

ما حك جلدك غير ظفرك فتول أنت جميع أمرك

ذلك ما شعر به المصريون في هذه الأيام، فهبوا إلى إلقاء نير التعليم الذي يريد المصلحون أن يلقوه علي عاتقهم، ونِعم ما فعلوا. ولقد كنا في مقدمة المنبهين إلى هذه الحالة، المنادين بالأمة، إلى أن تتولى كل أمرها، وتحك جلدها بظفرها قبل أن يفوت الأوان وتضيع الفرصة. والحمد لله أن صوتنا قد سمع، وكان له دوي نبتهج له، ونفرح به. وبذلك صار الهلال بدرا، وتم تاريخ النهضة العلمية. فبعد أن كانت الأمة تهرب من المدارس كأنها السجون أصبحت تتأهب لتشييدها علي حسابها، وبنائها علي نفقتها.

ونحن نقابل بالمسرة، والابتهاج مطالع هذه النهضة الشريفة؛ لأننا نعتبر أن الأمة التي تضع كل اتكالها علي الحكومة في تعليم أبنائها، وتربيتهم دون أن تشاركها في ذلك العمل العظيم بإنشائها المدارس الحرة، ومجالس العلم المستقلة لهي أمة لا أمة، أو شعب لا يأهل لأن يكون في مصاف الشعوب. وغني عن البيان أن العلم هو دون سواه واسطة إلى ترقية الشعوب، وسلم تبلغ بها الأمم قمم المدنية والحضارة. وهو الميزة الكبيرة التي تفرق بين الشعوب الحية،

والشعوب الميتة. فالأمة المتعلمة هي الأمة الحية، والأمة الجاهلة هي الأمة الميتة في الحقيقة؛ وذلك أن العلم هو حياة الأقوام، والقوة التي يتذرعون بها إلى تسلق المعالي التي يريدونها، وإلى كبح جماح الصعوبات التي تعرض لهم في أدوار هذه الحياة، وهو الحسام الذي تجني به أبعد غايات الشرف، والمجد. والآلة التي تستخرج بها معادن الثروة، والغنى. فالأمة المتعلمة إذًا هي الأمة الحية قياسا علي ما لديها من أسباب العمران، ووسائل التقدم؛ لأنها بالعلم تزيل كل عقبة تقوم في سبيل نجاحها وتقدمها.

أما الأمة الجاهلة فإنها بالطبع عادمة كل أسباب التقدم، وبالتالي كل أسباب الحياة. ولذلك فهي محكوم عليها بالتأخر، وبمعني أوضح بالدمار والموت.

ولا مراء في أن موت الشعوب لا يكون فقط بإبادة الشعب ومحو آثاره من الوجود، بل يكفي لأن يحسب الشعب ميتا أن يكون جاهلا خاملا، لا تجارة له، ولا صناعة عنده، ولا أدب يؤخذ عنه. وأن يكون محتاجا في أموره إلى الشعوب الأخرى، يأخذ منها كل شيء، ولا يعطيها سوى المال الذي لديه.

ولكن الشعب يحسب حيا مهما كان صغيرا إذا كانت لديه مادة يبادل بها الشعوب الأخرى موادها، فلا يكون كالبقرة الحلوب يعمل لغيره، ويستثمر لنفع سواه. ولعمري أنه يخلق بالمريدين الخير للشرق، الطالبين إصلاح حاله، وانتشاله من الوهدة التي هو واقع فيها، أن يمعنوا النظر في أمر بالغ غاية الشأن وحد الخطارة: وهو أن الأمة لا تكون أمة، والشعب لا يسمى شعبا إلا إذا كانا يعرفان ما لهما من الحقوق فيطلبانها، وما عليهما من الواجبات فيقضيانها. وغني عن البيان أن هذه المعرفة الواجبة لرفع الأمة إلى مصاف الأمم لا تنال إلا بالعلم، واقتباس أنوار المعارف. وأول ما يشرط في هذا الشأن معرفة لغة ذلك

الشعب، وتاريخه، وحقائق دينه. ولنأخذن مصر قياسا نقيس عليه في هذا الموضوع؛ لنرى إذا كانت بلادنا سائرة كما ينبغي في طريق النهضة العلمية فنقول:

أننا إذا نظرنا إلى عدد الذين يعرفون القراءة البسيطة في هذا القطر نخجل لهذه الأمة التي يوشك عدد أبنائها أن يبلغ العشرة ملايين. وإذا أحب القراء برهانا علي هذا القول فلينظروا إلى هذه الأرقام الرسمية الواردة في حساب الإحصاء الأخير.

فقد جاء فيه أن عدد سكان مصر يبلغ ٩ ملايين و٧٣٤ ألفا، و١٤٠٥ أنفس. وعدد الذين يعرفون القراءة من هذه الملايين ٤٣٥،٩٩٣ نفسا من الذكور؛ أي بمعدل ٨٠٨ في المائة، و٣١٨،٩٣ من الإناث؛ أي بمعدل ٦ في المائة، وجملتهم من الجنسين ٤٦٧،٨٨٦ نفسا فتأمل. ومعلوم أنهم ليسوا كلهم من المصريين، بل بينهم الأجانب علي اختلاف أجناسهم. والبلاد التي لا يعرف القراءة من سكانها أكثر من نصف عشرهم لخليقة بأن تجعل همها العلم، وتوجه كل عنايتها إلى تكثير عدد المتعلمين، وتقليل عدد الأميين فيها.

ولسنا نريد بالعلم في هذا الموقف العلوم العالية، والمعارف السامية، بل نقصد به تعليم القراءة والكتابة لابن الشعب، بحيث يعرف لغته، وتاريخ بلاده، وقواعد دينه، وبحيث إذا وقع تحت يده كتاب، أو جريدة فيها ذكر الوطنية، أو الواجبات القومية يكون في وسعه أن يتصفحها، ويفهم معانيها. فالذي نطلبه الآن إذًا بإلحاح عظيم كما يلتمس العليل الكثير الألم دواء يخفف به ألم العلة، ويدفع به مخاوف الموت، إنما هو تعليم أبناء الشعب، وتربيتهم تربية شرقية وطنية. أما العلوم السامية التي لا تأهل إلا للخاصة فالأمل وطيد، في أن أغنياء الأمة وكبراءها يتخذون لتعليم أبنائهم الخطة التي يجب علي وجوه كل أمة أن

يتخذوها.

وليس لبلوغ الغاية التي تقدم لنا بيانها أنفع من تكثير عدد المدارس الأهلية لتعليم أبناء الشعب، وتهذيب أخلاقهم، بل هي الطريقة الوحيدة التي تصل بها الأمة إلى هذه الغاية الحميدة، وكلما زاد عدد الذين يعرفون القراءة في القطر زاد عدد الذين يعرفون واجباتهم، وحقوقهم. وبمقدار ما يزيد عددهم يزيد عدد الأمة المصرية.

وخير طريقة للوصول إلى هذه النتيجة قيام لجنة وطنية تنشر المدارس في البلاد، حتى في القرى، والكفور. بحيث لا يبقي الشعب أميا كما هو الآن، ولا يكون عدد الذين يعرفون القراءة البسيطة من أهل مصر قاطبة من أجانب، ووطنيين ناقصا عن نصف عشر عددهم، وبالإجمال أن سبب تأخرنا جهلنا، ودواء هذا الداء العلم، فهو حاجتنا الكبرى، وإليه كل احتياجتنا، وهو وحده السبيل إلى نهوضنا من السقطة التي سقطناها، والانحطاط الذي وصلنا إليه.

وقد طلب إلينا مرة أن نقف في مجتمع دعى إليه قوم كثير عددهم، ونخطب في حاجة الشرق الكبرى، فجري علي اللسان ما لا يزال مدونا في الخاطر من الحض علي اقتباس المعارف، وورود مناهل العلم. ونحن موردون هنا شذورا من ذلك الخطاب الذي كلما تقادم عهده تجددت حاجتنا إلى إعادته؛ لأن في الإعادة إفادة، وذَكّر أن نفعت الذكري. وهو:

"أيها الإخوان، والأعوان، لقد جمعناكم إلي هذا المكان حيث تجمعنا الوطنية، واللغة، والقصد. علي تفرق المذهب، والبلد، والرأي. رجاء أن نكون الواسطة في ضم قلوبكم، ورأب ما انصدع من أنفسكم، وتوحيد ما تفرق من كلمتكم، وتوجيه أنظاركم إلى محجة واحدة، وإرسال سهام أفكاركم إلى الغرض الأعلى، والغاية القصوى: ألا وهي خدمة الوطن العزيز خدمة صادقة، لا

تشوبها الأغراض، ولا تدنسها الغايات والأهواء.

ناديناكم وأنتم خير من أجاب، فلبيتم الدعوة، واجبتم النداء؛ إذ علمتم أن اجتماعنا لأمر جلل، وحال ذي بال. فأكرم بكم من قلوب شبت علي حب الأوطان! فدانت به وانعطفت بكليتها إليه، لا تدخر جهدا، ولا تضن بنفيس، فلا عدمتكم الأوطان. أما الذين تقاعدوا عن حضور هذه الحفلة متخلفين عنها إما إلى الملاهي السائدة علي عقولهم، وإما لرهبة ممن يكرهون الخير للبلاد الشرقية العربية، فلندع في ظلمات ضلالهم وسيريهم الغد أنهم هم الخاسرون، أما نحن فلنا شأننا، ولكل من دنياه حال يعمل بها، فلنعمل إذا بما انتدبنا إليه العناية، ووقفنا له النفس من إعلاء شأن البلاد، متكلين في ذلك كله علي أنفسنا من بعد الله، وإياه نسأل الهداية في السبيل الذي نسلكه، وهو المسئول في أن يسدد خطواتنا إلى ما به الخير لبلادنا، وسائر عباده، آمين.

وبعد، فإن من نكد الدنيا علي الحر الصادق أن يري الانحطاط قد استولي علي وطنه العزيز، وهو لا يجد إلى دفعه عنه سبيلا. ولقد اجمعنا في الاجتماع الأول رأيًا، واتفقنا كلمة، وعقدنا النية، ووطدنا العزم، وتألفت قلوبنا الملتهبة بحب الأوطان –وحب الوطن من الإيمان– علي أن نجعل وجهة حديثنا، وموضوع اهتمامنا في أعمال هذا المجلس النظر إلى الواسطة الفعالة في دفع المكروه، ودرء المفاسد عن البلاد التي عاصرنا فيها غصون الأنس في حدائق الصباء، ثم استنباط الحيلة لرأب صدع تلك الأوطان، وجبر كسرها. فإننا مكلفون في ذلك مطالبون به، ولا عذر لنا في إهماله؛ إذ كانت لنا بمثابة الأم، وكنا البنين. وأي ابن يرى جرح أمه يسيل فلا يغسله بالدموع؟، بل أي ابن يسمع أن أمه من فؤادها عليل فلا تنشق منه الضلوع؟. ولقد تفضلتم فكلفتمونا النظر في الأمر اعتقادا منكم أننا لذلك أهل، وعهدتم إلينا البحث

والتنقيب، فشمرنا عن ساعد الجد والاهتمام، ولم نخلف ظنكم بنا مع ما نحن عليه من قصر الباع وقلة المتاع. فلقد فتح علينا –ونحمد الله علي ما أولانا إياه، ونحن أحقر عبيده من الفتح الذي يؤهلنا لخدمة الأوطان– فجمعناكم إلى هذا النادي لنزف إليكم بضاعتنا، فانظروا إليها بعين الحلم، وأصلحوا ما فسد منها. فالإنسان موضع الغلط، وما نحن في الأرض بمعجزين.

موضوعنا أيها السادة والأخوان البحث عن علة تأخر الأوطان، والسعي وراء الواسطة التي تُنيلنا الأمنية والنجاح. أما علة تأخرنا فمعروفة مشتهرة عنا ألا وهي: الجهل الذي خيم فوقنا، والإهمال الذي تسلط علينا مع عدم النظر في العواقب. وما أفيض في الكلام على هذا الموضوع؛ إذ ليس فيكم إلا من يدري بأمره، ويذوق الآن مرارة عاقبته.

وأما وسيلة النجاح فهي النقطة التي ينبغي أن نوجه إليهاالإبصار، والمحور الذي يجب أن تدور عليه الأفكار... لا يتم نجاح شعب إلا باستقلاله، ولا يكون استقلاله إلا بعمله، وغناه. ولا سبيل إلى العلم، والغنى إلا بالجد، والسعي، والإصلاح. ولا إصلاح إلا مع الحرية، ولا حرية إلا متى عرف الشعب واجبه، وحقوقه. وهنا نقطة المسألة.

وكأننا بكل فرد منكم ينتظر أن نطيل الشرح عن كل هذه المواد، ونفصل كلا منها علي حدتها، ونعرفها تعريفا يدينها من فهم الجميع من السيد العالم إلى العامل، والحارث، والصانع، والجاهل. ولكن قد طاش سهم من ظن ذلك، وأخطأ الغرض. فإن الثمرة لا تُقطف إلا متى نضجت، ونحن نري شعبنا – وسيف الأسف يمزق أحشاءنا– لا يزال بعيدا عن التفكير بحراثة أرض هذه الشجرة، والعناية بها، ورعايتها لكي تنضج ثمارها بحسب شريعة الارتقاء، وناموس التقدم. فمن الواجب إذًا في بادئ الأمر أن نفتح أبصار الشعب

بالتعليم الابتدائي العام، فمتى تلقنه وأحسن فهمه نقوده إلى ما لا ندحه عنه للشعب الذي يسعى وراء الكمال: ألا وهو اعتبار نفسه في المنزلة الحقيقية التي هو فيها، ومعرفة ما للمرء من المقام في هيئة الاجتماع، وأن الرجل حر الإرادة غير مقيدا إلا بسلاسل الشرائع الطبيعية، والقوانين الوضعية المدنية، والنواميس المتعاهد عليها المتعامل بها. ومتى عرف ذلك أدرك من نفسه الحاجة إلى ما فوقه مما هو اسمي منه من معرفة الحقوق، والواجبات. فيسعي إليهاسعي عارف بما يجب عليه عمله للوصول إلى مبتغاه، وحينئذ فلا خوف من المناداة أمامه بالحرية، والمساواة، وفتح أبواب العلوم العالية، والمعارف السامية، والفنون والصنائع الجميلة التي هي مصدر الثروة، ومنبع الفخر والمجد عند كل أمه من أمم الحضارة.

هذه هي القواعد والأصول التي فتح بها علينا. والتي لا سبيل لأن نرومها الآن برمتها من عامة الشعب. فإن بلادنا ليست في حالة البداوة فنسير بها علي هذا النمط التدريجي، ولا هي في درجة الحضارة التامة فننهض نهضة واحدة للمطالبة بحقوقنا، وصيانة مصالحنا. ولا في طاقة خاصتنا أن تبدل أخلاق العامة مرة واحدة، وتبث فيها روح المدنية، وتسقيها العلم كالماء. والطفرة محالة، فالتأني إذا أولي، وهو خليق بنا في هذه الحالة الصعبة، والمقام الحرج. علي أن لكم لا يعفيكم –وأنتم خاصة الشعب وعيونه– من أمور يتوقف عليها مجرى التقدم في الحال. فاعلموا أنه لا بد لكم من بذل بعض ما في أيدي أغنيائكم من المال المتجمع، والذي لا فائدة من خزنه في زوايا الخزائن، بل من الواجب صرفه في الأمور التي تعود بالفائدة علي الوطن من إنشاء المدارس، والمكاتب، والمعامل، والمطابع، ومساعدة الكتاب، ونوادي الأدب، وتهذيب الأحداث، وتعليم الشبان، وتشغيل الفقير القوي، وإغاثة الملهوف، ثم إعطاء كل ذي حق حقه،

واعتبار كل في درجته، ومعرفة حقيقة الأحوال الإدارية والسياسية، والعلم بأن الرئيس كالمرؤوس تجاه هيئة الاجتماع، وأن لكل منهما حقوقا كما أن علي كل منهما واجبات. وما نكتمكم أن من وسائل التقدم في البلاد أن يكون وجوه الشعب، وخاصته، وعلماؤه ذوي اهتمام بشأنه، وسهر علي مصلحته، وأصلح رأي في أحواله، وأن يكونوا منتقدين عليه ما يجري فيه، غير خائفين سطوة، ولا عارفين غير صوت الحق. ومن مواجبهم أيضا أن يقودوا الشعب إلى الخير بآرائهم السديدة، وأن ينصفوا الضعيف من القوي، ويأخذوا للفقير من الغني، وأن يكونوا يدا واحدة، ويسعوا في ضم كلمة العامة، واستئصال الشقاق، ويؤلفوا حزبا وطنيا من شأنه المعارضة في كل ما ليس هو من مصلحة الوطن العامة، ويشجعوا كل ذي مشروع وصاحب اختراع، ويدفعوا بالوطني إلى مباراة الأجنبي، ويفضله عليه في المعاملة، وأن لا يحقروا شأن الصغير، ولا يدعوا للكبير سببا للاستبداد ولا سبيلا إلى الظلم، وأن يكونوا علي استعداد دائم لأن يقوموا أود الحكام ولو بحد السيف.

هذا ولما كنا الآن في مركز حرج وقد حظر علينا الاستقلال الذي هو خير راحة للأمة، وأعظم الغايات والأماني التي تطمح إليهاقلوب الشعوب، نري من الواجب علينا نحن الذين نصبتمونا للبحث عن الواسطة الفعالة في انتشال البلاد من الورطة التي وقعت فيها، والبلايا التي صبت عليها. أن نذكر لكم في هذا الموقف أننا لا نصل إلى ما نريده إلا بتقوية الشعب، وما نقويه إلا إذا علمناه أن له حقوقا، بل يجب عليه أن يطالب بها، وهنا عقدة المسألة.

أجل مشكلة يا قوم فكيف نحلها؟

قيل أن نهرا عظيما طغى علي بعض القرى، فقام أهل القرية المجاورة لرد شره، فلم يتمكنوا من مقاومة طغيانه. وكانوا كلما أقاموا في وجهه سدا أخذته

مياهه، وطغت على ما وراءه، وخربت، وهدمت. فراع البلاد شره، واجتمع الناس يتداولون فيما يجب أن يفعلوه ليكفوا أنفسهم شر الغرق، وفيما هم في جدال، وأخذ، ورد يريد أن يقيم كل حجته، ويعمل برأيه، همت عليهم المياه فأبتلعتهم عن آخرهم، وغرقت ديارهم.

ونحن نخشى أن يجيء أمرنا نحن العرب مصداقا لهذا المثل؛ إذ نلهو بمعارضة بعضنا بعضا عن سير التيار، فما ندري إلا وقد قبضت علينا يد لا يبقي لنا منها مناص ولا خلاص. ولكننا نذكر مثلا آخر نرويه لكم كما عرفناه، ونرى أننا إذا عملنا به كان لنا التوفيق والنجاح.

فلقد قيل أن نهرا عظيما طغى أيضا علي بلاد أخرى، فلم يضع أهلها الوقت بالجدال الفارغ، ولكنهم اجتمعوا مرة واحدة، فخطب فيهم أحد رؤسائهم فقال: يا قوم، إن البلاد في خطر الغرق، ولا طاقة لنا برد المياه، فإن كان لأحدكم رأي يكفينا به شره فلبيده. فقام من بين الجمع فتي لم يلبس الخز، ولم يتشح بالديباج، وقال أرى أن نحول مجري النهر إلى أوسع منه، ونفتح له مجاري، وسواقي أخرى كثيرة ينفذ منها. فقالوا بأجمعهم أحسنت، أحسنت، وبادروا في الحال دون مراء ولا جدال، فاحتفروا للنهر مجري جديدا واسعا، وكان بذلك خلاصهم.

وأننا نرى أن نتشبه بهم، فلا نضيع الوقت بالمجادلة، والمجازفة، وتقريع بعضنا بعضا. بل الأولي والأخلق لنا أن نبادر إلى تحويل مجري الأمور واستبدال الأحوال، وخلع الثوب القديم علي ما سبق لنا بيانه في صدر هذا الكلام. وإن كان ذلك لا يتم لنا علي سبيل العجلة فلا بأس من التأني. فإن الأهمية متوقفة علي البدء في العمل، فلنبادرن إذا إلى إثارة الخواطر بقتل القديم لإحياء الجديد. وأننا إنما نطقنا بما يختلج في صدر كل منكم، وما هو إلا بخار الوطنية يتصاعد

من نيران الحمية العربية. ونحن آملون بكم، واثقون من غيرتكم، معتمدون عليكم في تحقيق الأمنية وبلوغ الرجاء، حتى إذا دنا اليوم السعيد الذي يتم فيه عملنا المجيد نرفع رؤوسنا المنخفضة، ونقول بتيه وافتخار: "ألا يا قومنا لقد فتحت لكم أبواب الحرية، فأدخلوها بسلام آمنين. وإذا سألتموننا كيف تنفتح البصائر، وتنار الأذهان، وتجتمع الكلمة، وتعقد المحاضر، وتوجد الجامعة الوطنية، وتعظم الشعوب، وتعلو مكانة الأمة، وينال الاستقلال وغزر المال بين أيدي الرجال؟ أجبناكم أن ذلك حاصل بالعلم، وأن العلم يحيي الأمة والجهل يقتلها، فلا ترضوا أيها السادة والإخوان بأن تكون أممنا الشرقية أمما ميتة، وشعوبنا العربية شعوبا خامدة بائدة، والسلام علي من اتبع الهدى"

ولسنا بعد كل ما تقدم نشعر بالحاجة إلى مزيد من الحض علي تعليم أبنائنا، وإنشاء المدارس في هذا القطر الذي لا نهضه لأهله من عثرتهم إلا بتعليم الشعب، وتربيته، وتهذيبه إلى حد يصبح معه قادرا علي مجاراة سواه من الشعوب المتمدنة، وأمم الحضارة، والصناعة.

هذا ولم لم تكن الحالة في مصر علي ما هي عليه الآن من وجود الاحتلال الأجنبي القابض بيد حديدية علي عنق البلاد وحكومتها. لكان حديثنا موجها بعضه إلى الحكومة، ولكانت لنا كلمة في التعليم الإجباري، ولكن الحالة هنا لا تشبه أحوال الشعوب الأخر في شيء. فإن القابضين علي زمام الأمور أحب ما إليهم أن يفسد التعليم فسادا تاما، بل أن تقفل أبواب المدارس، ويغوص الشعب في لجة من الجهل لا قرار لها. فلذلك نحن نوجه الخطاب إلى الشعب، مرددين لكل مصري آية إحدي الكتب المقدسة: "خلاصك في يدك يا إسرائيل". وأنت يا مصر خلاصك بيدك، والعلم وسيلة نجاتك. "وقد تبين الرشد من الغي فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها"

ذلك فيما يتعلق بمصر. أما العثمانية التي ننتمي إليها، ونغار عليها غيرة الوطني الصادق الذي يلتمس لوطنه الإصلاح، ويرغب له كل رفعه، وعز، ونجاح، فإننا نلقي اللوم في انحطاط الآداب والمعارف فيها علي حكومتها لا علي شعبها. لأن الشعب في العثمانية –ولاسيما الذين لغتهم العربية من أشد الناس رغبة في تلقي المعارف، والعلوم، واتباع طريق المدنية المصرية، والحضارة المفيدة. حتى أنك لا تكاد تمر في شارع من شوارع الحواضر الكبيرة في سوريا، ولا تكاد تذكر قرية، ولا دسكره، ولا كفرا دون أن ترى بناء مدرسة، أو باب "كتاب". وإذا عددت الشعراء والكتبة في سوريا عددتهم بالمئات، وإذا حسبت الذين يعرفون القراءة –وكلهم من أهل البلاد– وجدت عدد المتعلمين يتجاوز عدد الأميين تجاوزا عظيما ويفوقه كثيرا.

ومع ذلك فإنك تجد الآداب العامة منحطة، وسوق العلم في كساد لم يشبهه كساد في مكان، أو زمن من الأزمان. والسبب في ذلك خطة الحكومة في التضييق علي الشعب، والضغط علي الأفكار، وسعيها في حبس الأقلام ومنع الألسنة من الكلام، بحيث صرنا علي وشك أن نحكم بأنها تعمل عمدا علي قتل العلوم، والمعارف؛ لقتل العواطف الشعبية، ومنع ترقيه الأمة ونجاحها. وليس ذلك بالشأن الذي يجب أن يكون شأن الحكومات، بل من الواجب على الحكومة في تلك البلاد التي توشك أن تخلو من كل صاحب قلم، وفكر أن تخالف طريقتها الحاضرة، وتذكر أن العمران لا يتم إلا بالعلم، وأن البلاد التي لا ينشر العلم فيها رايته تنشر فيها راية الجهل، وبالتالي التأخر، والانحطاط، والفقر مع الظلم، والاستبداد، والخيانة، وكثرة الجرائم، وامتلاء السجون.

وشهد الله أننا لم نكن نود أن نحط من هذا الكلام حرفا عن بلادنا، ولكن ليست في اليد حيلة، وقد أحرجنا القوم حتى أخرجونا عن جادة الاعتدال، ولنا

في ذلك عذر. إننا نري الوطن المحبوب يذبح بسكين الجهل، فلا بدع أن صرخنا صرخة الأواه.

وحبذا لو تنبه ولاة الشأن والشعب معا إلى حقيقة ثابتة لا ريب فيها، ولا مراء: وهي أن السجون لا تفرغ حتى تمتلئ المدارس، وأن المدارس في العثمانية لا تمتلئ كما يجب، وكما ينبغي إلا متى أخذت الحكومة بيد الشعب وعضدها هو أيضا في عمل التربية العظيم.

نعم إن الحكومة العثمانية آخذه بإنشاء المدارس، وتكثير عددها. ولكن ذلك وحده لا يكفي، بل ينبغي أن تكون طريقة التعليم من الطرائق التي تحبب مدارسها إلى الناس، فيلوون عن مدارس الإفرنج إليها، ويلجأون إلى كنفها. ثم يجب عليها أن تنظر في جعل التعليم إلزاميا، وحفظ مقام المتعلمين، وإيجاد الطرائق التي ينفع العلم معها، بحيث لا يفضل أحد في البلاد الجهل علي العلم كما هي الحالة الآن.

ولو شئنا أن نفيض في هذا الموضوع لاضطررنا إلى اختصاصه بمجلد في حجم هذا الكتاب. فنحن نقف منه عند هذا الحد، مؤملين أن يفتح رجال العثمانية أبصارهم وبصائرهم، وأن يتلافوا الحالة بالتي هي أحسن قبل أن نصل إلى يوم ننشد فيه قول الشاعر: "أعطيت ملكا فلم أحسن سياسته". والله المسئول في تسديد خطواتنا جميعا إلى ما به الخير والصلاح إن شاء الله.